قصة الموريسكيين

ثغرة فى الرواية العربيـــــة

يتبدى لنا تاريخ الأندلس فى مراحله الأخيرة ، ولا سيما مذ أخذت مملكة غرناطة آخر الممالك الاسلامية فى أسبانيا تنحدر إلى هاوية الانحلال ، فى صور مضطربة جافة ينقصها التفصيل والوضوح . فاذا انتهينا بعد سقوط غرناطة إلى المرحلة الختامية تبدت لنا قصة الأمة الأندلسية المغلوبة فى صور قاتمة تزداد حلكا على ممر الزمن حتى تغيض فى النهاية فى عالم النسيان والعدم .

على أننا نستطيع خلال هذا الحلك الذى يكتنف نهاية الأمة الأندلسية أن نستعرض فى جلاء ووضوح صور ذلك الاستشهاد الطويل المؤثر الذى لبثت تعانيه أكثر من قرن من الزمان. ذلك أن ظفر أسبانيا النصرانية بالاستيلاء على غرناطة وسحق دولة الاسلام فى الأندلس لم يكن سوى بداية النهاية فى مصير الأمة الأندلسية . ولم يكن فقد السيادة القومية وفقد الاستقلال والحرية ، والذلة السياسية ، والاضطهاد الدينى والاجتماعى ، وهى المحن التى تنزل عادة بالأمم المغلوبة ، سوى لمحة يسيرة مما كتب على الأمة الأندلسية أن تعانيه على يد عدوها الظافر . أجل ! كان مصير مسلمى الأندلس بعد فقد دولتهم وزوال سلطانهم من أروع ما عرفت الأمم الكريمة المغلوبة وكان مأساة من أبلغ مآسى التاريخ .

تلك هى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين . وهى مأساة لا تحتل مع شديد الأسف مكانها الحق فى الرواية الاسلامية ، بل إن الرواية الاسلامية تعرض لنا فى هذا الموطن ثغرة لا تكاد تتخللها سوى شذور ولمحات يسيرة . وهى على وجه العموم مقلة ضنينة فى مراحل التاريخ الأندلسى الأخيرة . ولم ينته إلينا فى هذا الموطن سوى رواية إسلامية واحدة تضمنها سفر صغير هو

كتاب « أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر »(١) وهى رواية تتناول حوادث سقوط غرناطة (١٤٨٧—١٤٩٢ م) وحوادث التنصير الأولى التى وقعت بعد التسليم بفترة يسيرة ، كتبها فى سنة ٩٤٧ ﻫ (١٥٤٠ م) أعنى بعد سقوط غرناطة بخمسين عاماً مؤلف مجهول ربما كان من أشراف غرناطة الذين بقوا فيها وأرغموا على التنصر ، ولكنهم بقوا مع ذلك مسلمين فى سريرتهم. وقد كانت هذه الرواية أساساً لكل ما كتبه المسلمون المتأخرون عن سقوط غرناطة ومأساة العرب المتنصرين . ولم تصل إلينا إلى جانب هذه الرواية الوحيدة سوى رسائل وشذور وقصائد متناثرة نقلها إلينا المقرى مؤرخ الأندلس فى مؤلفه « أزهار الرياض » ومعظمها مما كتبه أو نظمه أدباء المغرب عقب وقوع المأساة بقليل .

ونستطيع أن نرجع هذا النقص فى الرواية الاسلامية عن حوادث المأساة الأندلسية إلى عاملين : الأول هو أن فى عصور الانحلال والسقوط تخمد الحركات الأدبية والفكرية وتقل العناية بالتدوين التاريخى كما تقل فى جميع نواحى التفكير والأدب . ولدينا فى ذلك مثل بارز فى تاريخ مصر الاسلامية هو ضآلة المؤلفات والوثائق التاريخية التى انتهت إلينا عن العصر التركى وهو عصر انحلال فكرى واجتماعى مطبق . وقد كان هذا العامل أشد بروزاً فى المأساة الأندلسية حيث لم تجد الأمة الشهيدة التى صفدت بأشنع الفروض والأغلال ، وأرغمت على نبذ دينها ولغتها ، متسعاً من الوقت أو التفكير لتدوين محنتها وآلامها ، بل لم يكن ليسمح لها بأن تلجأ إلى مثل هذا التنفس الخطر . والعامل الثانى هو ما نرجحه من فقد معظم الكتب والوثائق العربية التى وضعت عن المأساة فى هذا الوقت ، ووضعها على الأغلب نفر من الأندلسيين النازحين إلى المغرب بعد سقوط غرناطة أو بعض الكتاب المغاربة الذين كانت لهم بالأمة المغلوبة أو باللاجئين منها بعض الصلات . وهذا التراث الضائع هو الذى يلوح لنا أن المقرى وقف عليه وانتفع ببعض مخلفاته مما كان موجوداً منه فى عصره ،

---

(١) بنو نصر أو بنو الأحمر ملوك غرناطة هم آخر أسرة ملوكية أندلسية . وقد وجدت من هذا السفر نسخة وحيدة فى مكتبة الاسكوريال قام بتحقيقها ونشرها المستشرق الألمانى يوسف ميلر (جوتنجن سنة ١٨٦٣) مقرونة بترجمة ألمانية .

أعنى القرن السابع عشر ، فنقل إلينا منه بعض الرسائل والشذور والقصائد .

على أن هذه المرحلة المؤلمة من تاريخ الأمة الأندلسية تشغل بالعكس فى تاريخ أسبانيا القومى حيزاً كبيراً يمتد زهاء قرن ونصف ، وتخصه الرواية الأسبانية بكثير من عنايتها . ولكن الرواية الأسبانية تتأثر دائماً بالعوامل القومية والدينية إلى أبعد حد ، وتنظر دائماً إلى ذلك الاستشهاد المفجع الذى فرضته أسبانيا على الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، و إلى تلك الآثام المروعة التى كانت ترتكبها محاكم التحقيق (١) باسم الدين ، وإلى تلك الوسائل البربرية التى اتخذت لتشريد الموريسكيين وإبادتهم بعين الكبرياء والرضى ، وترى فيها دائماً نوعاً من الإنقاذ القومى وتطهيراً للدين والوطن من آثار العدو المغير وآثار تراثه الروحى والاجتماعى . وهى تحيط هذه المرحلة من تاريخ أسبانيا بكثير من القصص والأساطير الحماسية التى تشيد بظفر أسبانيا النصرانية و بما أسبغته العناية الالهية على خطتها وسياستها فى إبادة الأمة الأندلسية ثم العرب المتنصرين ، وفى القضاء إلى الأبد على آثار تلك الدولة الاسلامية المجيدة التى ازدهرت فى أسبانيا ثمانية قرون ، وعلى حضارتها وآدابها وكل ذلك التراث الباهر . على أن الرواية الأسبانية بالرغم من تأثرها العميق بالعوامل القومية والدينية ، تعرض علينا حوادث هذا النضال الأخير فى أسلوب مؤثر ، وقد لا تضن فى بعض المواطن والمواقف بعطفها وأحياناً باعجابها ، على تلك الأمة المغلوبة الباسلة التى لبثت تناضل حتى الرمق الأخير عن كرامتها وعن تراثها القومى والروحى .

وليس تاريخ الموريسكيين قصة عادية لشعب مغلوب بل هى قصة العهود المنتهكة والنكث المدبر ، وقصة التعصب القومى والدينى المضطرم ، وهى أخيراً نضال الضعيف المكلوم ، ولكن الأبى الباسل ضد قوى جرارة لا قبل له بمغالبتها ، ولكنه يتفانى فى صراعها حتى تصرعه وتقضى عليه شهيداً كريماً .

كانت الأمة الأندلسية حينما سقطت غرناطة حصنها الأخير فى يد الأسبان وقضى عليها بالغلبة والذلة السياسية زهاء ثلاثة ملايين من الأنفس تحتشد فى رقعة ضيقة ولكن نضرة زاهرة فيما بين نهر شنيل والبحر وتشمل عدا غرناطة

---

(١) هى المعروفة خطأ بمحاكم التفتيش Inquisition .

عدة من القواعد والثغور مثل وادى آش وبسطة والمرية ومالقة ، وكانت معاهدة التسليم التى عقدها أبو عبد الله آخر ملوك الأندلس مع الملكين الظافرين فرديناند وزوجه إيزابيلا تكفل للأمة المغلوبة ضمانات مؤكدة بتأمين النفس والمال والعرض ، واحترام الدين والشعائر القومية ، والابقاء على شريعتهم ومساجدهم ، وعدم إرغامهم على التنصير ، وأن يجوز منهم إلى بلاد المغرب من شاء ، وألا يعرضوا على العموم لأية فروض أو قيود تحد من حرياتهم أومعتقداتهم أو تسئ إلى كرامتهم . وتضم معاهدة التسليم زهاء ستين شرطاً تدل فى روحها وتفاصيلها على ما كان يخالج الأمة المغلوبة من ضروب الريب والتوجس فى نيات سادتها الجدد .

والواقع أنه لم تمض أعوام قلائل حتى حدث ما توقعته الأمة المغلوبة من نكث وانتهاك للعهود المقطوعة ، وكانت السياسة الاسبانية يذكيها وحى الأحبار المضطرم ، ترى أنه لا بد لتحقيق ظفرها الكامل أن تسحق الآثار الأخيرة للاسلام وأن تمحى الخواص والتقاليد القومية للشعب المغلوب . فبدأت بتحوير نصوص ، المعاهدة ، والتنكر للمسلمين واضطهادهم . وفى سنة ١٤٩٩ اتخذت الاجراءات العنيفة الأولى لتنصير المسلمين على يد الكردينال كميس مطران طليطلة ، ولم تدخر القوة وسعاً فى تنفيذ مأربها ، وأرغمت جموع كبيرة من أهل غرناطة على نبذ دينها واعتناق النصرانية ، وحملت المحنة والتعلق بالوطن وهموم الأسرة والابقاء على الأهل والولد كثيراً من الأعيان والفقهاء على اعتناق الدين الجديد . وأتبع الكردينال ظفره بجمع الكتب العربية والمصاحف وحرقها فى ساحة غرناطة ليقضي على علوم الأمة المغلوبة وتراثها الروحى والعقلى ، وخرجت الأمة الأندلسية من هذه المحنة المؤلمة باسم جديد هو أمة الموريسكيين Moriscos أو العرب الأصاغر أو العرب المتنصرون .

وعملت السياسة الاسبانية فى الوقت نفسه على إنشاء ديوان التحقيق Inquisition فى غرناطة . وقد كانت هذه المحاكم الكنسية المروعة تعمل من قبل فى أشبيلية وغيرها لمطاردة اليهود وأهل الزيغ ، فألفت فى الموريسكيين فرائسها الجدد مرتعاً خصباً لنشاطها الرهيب ، وكانت تأخذ أولئك المتنصرين الأحداث بأتفه الشبه التي يمكن تصورها ، فاذا امتدح الموريسكى دين محمد أو باشر بعض عوائده القديمة كالاحتفال بيوم الجمعة أو التحدث باسم الله

أو إذا سمى أولاده بأسماء عربية، أو صام رمضان، أو امتنع عن أكل لحم الخنزير أو شرب الخمر، أو ركع أو سجد، أو أنشد الأناشيد العربية أو خضبت المرأة يديها أو شعرها، أو غير ذلك من الشبه المماثلة اعتبر مرتدا كافراً، وعوقب بعقوبات شنيعة تصل إلى حد الموت والمصادرة، هذا فضلا عما يكتنف المحاكمة من إجراءات التعذيب المروعة، وهى إجراءات لا يتسع المقام لشرحها (١).

وتجهم الأفق حول الموريسكيين شيئاً فشيئاً وتتابعت التشريعات والقوانين المرهقة، فعليهم أن يسكنوا فى أحياء خاصة لا يتعدونها على نحو ما كان يلزم اليهود بالسكنى فى « الجيتو »، وعلى كل مسلم بقى على دينه أن يبادر إلى التنصير فى ظرف ثلاثة أشهر أو يترك الأرض الاسبانية تاركا أملاكه للدولة، وعليهم ألا يحملوا السلاح وإلا عوقب المخالفون بأشد العقوبات . ولم تكن هذه القوانين المرهقة تلقى دائماً من الموريسكيين قبولا سهلا بل كانت منهم جماعات كثيرة فى غرناطة وبلنسية وغيرهما تجنح إلى المقاومة والثورة . وكانت ثورتهم الأولى فى سنة ١٥٠١ فى مفاوز البشرات وفيها قتلوا جمعاً كبيراً من الاسبان وقائدهم الدوق آجيلار، واضطرت الحكومة الاسبانية أن تصدر لهم عفواً . بيد أنها اتخذت هذه المقاومة ذريعة للتشدد فى معاملة الموريسكيين واعتبارهم خونة مارقين، واعتبر التنصير أقل ما يجب فرضه عليهم . وأقر مجلس الدولة فى عهد الامبراطور شارلكان هذه النظرية وصدرت على أثر ذلك عدة قوانين جديدة حرم فيها على الموريسكيين بيع الحرير والذهب والفضة، وحرم عليهم فى بلنسية حمل السلاح، وألزموا بتغيير الثياب العربية، على أن هذه القوانين المرهقة طبقت مدى حين فى نوع من الرفق والتساهل.

فلما كان عهد ولده فيليب الثانى، كان التنصير قد عم المسلمين، وأصبحوا يشهدون القداس ويتكلمون القشتالية، ولكنهم مع ذلك لم يحظوا بعطف الحكومة الاسبانية، ولم يحظوا بالأخص بعطف الكنيسة التى أبت بعد إرغامهم على اعتناق مذهبها أن تضمهم إلى حظيرتها . وكان فيليب الثانى ملكا شديد التعصب يقع تحت تأثير الأحبار ونصحهم، فهبت فى عهده على الموريسكيين ريح شديدة

---

(١) تناولت فى كتابى ديوانى التحقيق والمحاكمات الكبرى، دستور هذه المحاكم الشهيرة واجراءاتها فى التحقيق والتعذيب والمحاكمة بتفصيل واف.

من الارهاق والتعصب ، وأحييت القوانين القديمة وصدرت قوانين جديدة تحرم عليهم حمل السلاح وتمنعهم من التخاطب بالعربية أو التعامل بها بعد مرور ثلاثة أعوام ، وتحرم عليهم قراءة الكتب والأوراق العربية ، وتلزمهم بترك الثياب العربية وارتداء الثياب الأوربية ، وتلزم نساءهم بترك الحجاب وارتداء الثياب المكشوفة ، وتحريم الخضاب وتحريم الأناشيد العربية ، وبفتح المنازل أثناء المآدب والاحتفالات للتحقق من أنها لا تجرى وفقاً للتقاليد العربية ، وغير ذلك بما يقصد به إلى القضاء الأخير على البقية الباقية من خواص الأمة المغلوبة وتقاليدها .

وكان هذا أشد ما تحتمل الطاقة البشرية . وكانت ثمة جذوة أخيرة ما زالت تتقد فى نفوس هذا الشعب الأبى التالد الذى حطمته الخطوب والرزايا . وكان صدور القوانين الجديدة وما بدا من تشدد فى تطبيقها نذيراً بانفجار جديد يذكيه اليأس المطبق ، فاضطرمت غرناطة بثورة جديدة عامة ، وبرز من بين الصفوف فتى يفيض حماسة وإقداماً هو فرديناندو دى فالور . وكان هذا الاسم القشتالى يحجب نسبة عربية ملوكية ؛ فقد كان هذا الزعيم الفتى ينتمى إلى بنى أمية خلفاء الأندلس القدماء ، ومن ثم فقد تسمى بمحمد بن أمية وبادر بالنزوح مع جماعة كبيرة من أنصاره إلى وادى آش وهنالك استعصم بشعب البشرات وأعلن الثورة (سنة ١٥٦٨) وفتك الموريسكيون بالجند الاسبان الذين تصدوا لمطاردتهم وفتك الاسبان فى غرناطة بالنساء والأطفال ، وتفاقمت الحوادث وتكررت المعارك فى أنحاء البشرات وفى غرناطة ، وندب فيليب الثانى أخاه الدون خوان على رأس قوة كبيرة لإخماد الثورة ، ولكنها استمرت فى تفاقمها وهلك من الفريقين عدد جم ، كل ذلك ومحمد بن أمية معتصم بقواته فى شعب البشرات يغير هنا وهنالك على القرى والمحلات المجاورة ، ويفتك جنده بالاسبان وعمال الحكومة ، ثم قتل محمد غيلة وخلفه فى الرياسة قريبه مولاى عبد الله ، واستمرت المقاومة حيناً حتى نضب معين الثوار وساءت حالتهم ، وهنا قتل مولاى عبد الله أيضاً وانهارت الثورة الموريسكية على أثر ذلك وسحقت ، وخبت آخر جذوة من العزم والنضال فى صدور هذا المجتمع الأبى المجاهد ، وأصدر فيليب الثانى قانوناً بنفى الموريسكيين من مملكة غرناطة ومصادرة أملاكهم العقارية . وقضت المشانق ومحارق ديوان التحقيق والمحن المتوالية على كل نزعة إلى الخروج

والنضال ، وهاجر كثير من الموريسكيين إلى بلاد المغرب فى ظروف مؤثرة . وهبت فى النهاية ريح من الرهبة والاستكانة المطلقة على ذلك المجتمع المهيض المعذب ، وعاش الموريسكيون لا يسمع لهم صوت ولا تقوم لهم قائمة فى ظل العبودية الشاملة والارهاق المطبق حقبة أخرى .

وكانت الأمة الأندلسية قد استحالت بعد هذه المحن المتوالية وهذا النضال المضنى إلى جماعات مهيضة ممزقة تحتشد فى بعض القواعد الجنوبية وفى بلنسية بالأخص . وكانت للموريسكيين صلات وعلائق خفية مستمرة باخوانهم فى المغرب ، وكانوا يتوقون إلى مغادرة هذا الجحيم إلى ما وراء البحر ، ولكن الحكومة الاسبانية لبثت عصراً تحول دون هذه الأمنية ما استطاعت ، وكانت ثمة ظاهرة مزعجة تحفزها إلى حجز الموريسكيين والتشدد فى مراقبتهم ، تلك هى الغارات البحرية على الشواطئ الاسبانية ، وهى غارات قام بتنظيمها أكابر البحارة الترك مثل الأخوين أوزوج وخير الدين وطرغود ، وكان قوامها جماعات من المجاهدين المغاربة أو الموريسكيين الفارين ، وكانت السفن المغيرة تنقض على الشواطئ الاسبانية ما بين آن وآخر تحت جنح الليل تختطف جماعات كبيرة من الموريسكيين وكذلك الاسبان ، وكان الموريسكيون فى الثغور ولا سيما فى بلنسية يمدونها بالتوجه والارشاد . وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر، وكانت تمثل بالأخص انتقام الموريسكيين وزملائهم المجاهدين المسلمين لما حل بالأمة الأندلسية من شنيع الظلم والاضطهاد . وانتهت السياسة الاسبانية إلى أن تعتبر الموريسكيين عنصراً خطراً على سلامتها يأتمر مع العدو ويجب التحوط منه والقضاء عليه . وكانت الحكومة تفكر منذ أيام فيليب الثانى فى مشروع ضخم تتخلص به أسبانيا من هذا العنصر الخطر . ففى أوائل عهد فيليب الثالث عكفت السياسة الاسبانية على وضع خطتها النهائية للتخلص من الموريسكيين بقايا الأمة الأندلسية ، وانتهت بعد طول البحث والجدل إلى اتخاذ خطوتها الشهيرة بنفى الموريسكيين وإجلائهم عن سائر الأراضى الاسبانية ، وأعلن مرسوم النفى النهائى فى سبتمبر سنة ١٦٠٩ واتخذ المرسوم سنده فى خيانة الموريسكيين واتصالهم بأعداء أسبانيا ، ووضعت إجراءات شاملة للنفى وتصفية المسائل المتعلقة به من شخصية ومالية ، وحددت مدد ضئيلة لانتقال الموريسكيين

إلى الثغور التى ينتقلون منها . وحشد الموريسكيون جماعات ممزقة دامية فى مختلف الثغور الاسبانية ، وحملوا فى مناظر مؤثرة مؤلمة إلى ثغور المغرب ، وسارت منهم جماعات أخرى إلى ثغور فرنسا و إيطاليا وهلك منهم ألوف فى السفن وعلى الشواطئ التى ألقوا فيها ، وتفرقوا فى مختلف الأنحاء ، وسارت منهم جماعات إلى مصر وقسطنطينية ، واستقر معظم الناجين فى ثغور المغرب وعاد معظمهم إلى دين الآباء والأجداد . وبذلك ينتهى الفصل الأخير فى مأساة الموريسكيين أو العرب المتنصرين ، وتغيض البقية الباقية من الأمة الأندلسية وتطوى إلى الأبد صفحة شعب من أنبل وأمجد شعوب التاريخ .

تلك هى قصة الموريسكيين التى ينفطر لها الفؤاد أسى والتى تملأ أكثر من مائة عام من تاريخ الأمة الأندلسية ، ومع ذلك فهى قصة مطوية منسيه فى الرواية العربية .

وقد أثارت قصة الموريسكيين عطف العالم الغربى وكثرت حولها الآراء والتعليقات فى المؤلفات الغربية ، ويكاد البحث الحديث يجمع على أن إبادة لأمة الموريسكية كان ضربة أليمة لعظمة أسبانيا ورخائها ، وأن أسبانيا الحديثة لم تنهض من هذه الضربة قط . وهو رأى يؤيده كثير من المؤرخين والمفكرين الاسبان أنفسهم .

محمد عبد الله عنان